

الأُسرة من منظور قرآن



﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ قَدْ تَرَكَ بِلَا شَكٍ﴾ في رسول الله ﷺ (ص) وأهل بيته (ع) وصحابته الكرام (رض)، الأثر الأكبر من معالم التربية الإسلامية، التي أمر الله نبيه ﷺ (ص) أن يربّي بها صاحبته الأجلاء، وقد شهدت بذلك عائشة زوج رسول الله ﷺ (ص) فقللت في وصفه: «كان خلقه القرآن»، بل إنّ شهادة الحق تبارك وتعالى قد سبقت كلّ شهادة، قال تعالى: (وَقَالَ الْأَذْنَى كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لَنُذَّبِّتَ بِهِ فُؤَادَكُ وَرَأْتَ لِنَدَاهُ تَرْتِيلًا) (الفرقان/32)، فها هنا إشارتان تربويتان هما:

1- تثبيت الفؤاد وترسيخ الإيمان.

2- تعليم الترتيل، في قراءة القرآن الكريم، وفيها نزلت التوصيات التربوية صريحة من الله إلى رسوله الكريم محمد ﷺ (ص)، وذلك قوله تعالى: (لَا تُحَاجِرْ كُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَجْعَلَ بِهِ) (القيامة/16)، وحياة رسول الله ﷺ (ص) في سلمه وحريره في حـلـه وترحاله في داره وبين أهله وصحابته والناس جميعاً، كلّها تشهد بما شهدت به نساؤه وأصحابه، وأنّه كان خلقه القرآن الكريم، فكان القرآن له الأثر الكبير في صقل سلوكيات المجتمع الإسلامي الذي عاشه رسول الله ﷺ (ص) والأئمّة الهـداة (ع) والصحابـة الـمـيـاـمـينـ، والـعـلـمـاءـ.

والسرّ في ذلك أنّ للقرآن أسلوباً رائعاً ومزايا فريدة في تربية المرء على الإيمان بوحدانية الله عالم الآخرة، كما وأنّه يفرض الإقناع العقلي المقتناع بإثارة العواطف والانفعالات الإنسانية، فهو

بذلك يربّي العقل والعاطفة جميّعاً، متماشياً مع فطرة الإنسان في البساطة وعدم التكلاّف، وطرق باب العقل مع القلب مباشرة.

بحيث يبدأ القرآن الكريم من المحسوس المشهود المُسْلَم به: كالنatur، والرياح، والنبات، والرعد، والبرق، ثم ينتقل إلى استلزم وجود الله وعظمته وقدرته وسائر صفات الكمال، مع اتّخاذ أسلوب الاستفهام أحياناً، إما الربانية: كالخضوع، والشُّكر، ومحبة الله، والخشوع له، ثم تأتي العبادات والسلوك المثالى تطبيقاً عملياً للأخلاق الربانية العالية.

ولعلّ أوضح مثال على هذا الأسلوب التربوي يتّضح في سورة (الرحمن) حيث يذكّرنا الله تعالى بذرعه ودلائل قدرته، بادئاً من الإنسان، وقدرته على التعليم، إلى ما سخر الله من شمس وقمر ونجوم وأشجار وفاكهه وثمار ونبع، إلى ما خلق من السماء والأرض، وعند كل آية عدّة آيات استفهامية تضع القارئ أمام الحس والوجودان وصوت القلب والضمير، فلا يستطيع أن ينكر ما يحس به ويستجيب له عقله وقلبه، وقد تكرّر هذا الاستفهام (فَإِنَّمَا رَبُّكُمَا تُكَذِّبُهُمَا) (الرحمن/ 13)، إحدى وثلاثين مرّة في هذه السورة المباركة، وفي كل مرّة يتّغير انفعالاً يختلف بحسب الآية التي تسبقه.

- السنّة المطهرة مصدر ثانٍ للتربية الإسلامية:

كما تعتمد التربية الأُسرية على معالم السنّة المطهرة التي هي مصدر ثانٍ من مصادرنا التربوية، بحيث ترتفع التربية الإسلامية منها معالملها ومنهاجاً ومواهجهما ومواطنهما الشرعية والأخلاقية والعلمية، لأنّها هي ذاتها في تعريفنا لها: إنّها الطريقة والأسلوب والنهج، وعند الأصوليين، هي ما نقل عن رسول الله (ص) وأهل بيته (ع) من قول وفعل وتقرير، فهو حجة على جميع العباد، بما تركه النبي (ص) وأهل البيت (ع) من أقوال، وأفعال، وصفات، ونهي، وأمر، وما كره، وما أحب، وأحواله وأحواله وحياته كلها عند المسلمين مصدر تربوي كبير ونهج قويم.

لذلك نجد في شخصية رسول الله (ص) مربياً عظيماً ذا أسلوب تربوي فذ، يراعي حاجيات الطفولة وطبيعتها، ويأمر بمخاطبة الناس على قدر عقولهم، أي يراعي الفروق الفردية بينهم، كما يراعي مواهبهم واستعداداتهم وطباّئهم، يراعي في المرأة أنوثتها، وفي الرجل رجولته وقامته، وفي الكهل كهولته... فيجود بالمال لمن يحبّ المال حتى يتّألف قلبه، ويقرب إليه من يحبّ المكانة لأنّه في قومه ذو مكانة، وهو في خلال ذلك كلّه يدعوهم إلى الله وإلى تطبيق شريعته، لتكامل فطرتهم وتهذيب نفوسهم شيئاً فشيئاً، وتوحيد نوازعهم وقلوبهم، وتوجيه طاقاتهم وحُسون استغلالها للخير والسمو، من طاقات العقل، وطاقات الجسم، وطاقات الروح لتعمل معاً ضمن نطاق واحد ونحو هدف واحد أسمى، لذلك أدرك العلماء هذه الحقيقة فألفوا كتبًا كثيرة حول هذه الحقيقة التربوية في نهج رسول الإنسانية محمد (ص).